

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ
لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: 70]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَيْقِظَ رَبُّ الْعَزَّةِ سُبْحَانَهُ مِنَ الرَّقْدَةِ، وَنَبَّهَ إِلَى عَظِيمِ الْغَفْلَةِ؛
بِالتَّنْبِيهِ عَلَى مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ، وَعَجَائِبِ الصَّنْعَةِ؛ نَبَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى
قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ فِي إِنْشَاءِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَدَمِ وَالْإِمَاتَةِ، وَتَنْقُلُهُ مِنْ حَالِ
الْجَهْلِ إِلَى حَالَةِ الْعِلْمِ؛ حَيْثُ إِنَّهَا صَوْرٌ قَدْ تَرَدَّدَتِ النَّفْسُ إِلَى شَيْءٍ
مِنَ التَّأَمُّلِ، وَتَرَدَّدَ الْقَلْبُ الصَّلْدُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ اللَّيْنِ، وَإِلَى شَيْءٍ مِنَ
الْحَسَاسِيَّةِ، وَقَدْ تَغَضُّ مِنْ كِبَرِيَاءِ الْمَرْءِ وَاعْتَرَاظِهِ بِقُوَّتِهِ وَعِلْمِهِ؛ إِذْ
الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ وَالْإِحَاطَةُ الشَّامِلَةُ بِيَدِ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَعِلَّامِ الْغُيُوبِ ﴿١﴾.

كُلُّ مَا فِي
الْوُجُودِ مِنْ بَالِغِ
حُكْمَتِهِ، وَبَاهِرِ
قُدْرَتِهِ

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾: الْوَفَاةُ: الْمَنِيَّةُ وَالْمَوْتُ، وَيُقَالُ: تَوَفَّى فُلَانٌ وَتَوَفَّاهُ
اللَّهُ إِذَا قَبِضَ نَفْسَهُ (2)، وَالْجَذْرُ (وَفِيَ) يَدُلُّ عَلَى إِكْمَالٍ وَإِتْمَامٍ (3)؛
لِذَا فَإِنَّ تَوَفَّى الْمَيِّتَ يَعْنِي: "اسْتِيفَاءُ مُدَّتِهِ الَّتِي كُتِبَتْ مِنْ عَدَدِ أَيَّامِهِ
وَشَهْوَرِهِ وَأَعْوَامِهِ فِي الدُّنْيَا"، وَتَوَفَّى النَّائِمَ يَعْنِي: "اسْتِيفَاءُ وَقْتِ عَقْلِهِ
وَتَمْيِيزِهِ إِلَى أَنْ نَامَ" (4).

(2) ﴿يُرَدُّ﴾: الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيْءِ وَرَجْعُهُ (5). "وَهُوَ مُصَدَّرٌ رَدَدْتُ
الشَّيْءَ" (6). يُقَالُ: رَدَّهُ عَنْ وَجْهِهِ، أَيْ: صَرْفَهُ (7)، وَرَدَّهُ عَنِ الْأَمْرِ، أَيْ:

(1) الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، مِفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 20 / 239، وَأَبُو حَيَّانٍ، الْبَحْرُ لِلْحَيْطِ: 6 / 562، وَابْنُ عَادِلٍ، الْبَابُ: 12 / 114، وَالْبِقَاعِيُّ، نِظْمُ الدَّرَرِ: 11 / 205.

(2) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، وَالْأَزْهَرِيُّ، التَّهْذِيبُ، وَالْجَوْهَرِيُّ، الصَّاحِحُ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (وَفِيَ).

(3) ابْنُ فَارَسٍ، الْمَقَابِيسُ: (وَفِيَ).

(4) الْأَزْهَرِيُّ، التَّهْذِيبُ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (وَفِيَ).

(5) الرَّاعِبُ، الْمَفْرَدَاتُ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (رَدَدَ).

(6) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ، وَالْأَزْهَرِيُّ، التَّهْذِيبُ: (رَدَدَ).

(7) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّاحِحُ، وَابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ: (رَدَدَ).

صَرَفَهُ عَنْهُ بِرَفَقٍ⁽¹⁾، وَالرُّدُّ: عِمَادُ الشَّيْءِ الَّذِي يَدْفَعُهُ وَيُرُدُّهُ، أَيُّ: يُرْجِعُهُ عَنِ السَّقُوطِ وَالضَّعْفِ⁽²⁾، وَالْإِرْتِدَادُ: الرُّجُوعُ، وَالرُّدَّةُ الْأَسْمُ مِنْهُ. "وَاسْتَرَدَّهُ الشَّيْءُ: سَأَلَهُ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ، وَاسْتَرَدَّ الشَّيْءُ وَارْتَدَّهُ: طَلَبَ رَدَّهُ عَلَيْهِ"⁽³⁾، وَيُقَالُ: "هَذَا أَمْرٌ لَا رَادَّةَ لَهُ، أَيُّ: لَا فَائِدَةَ لَهُ وَلَا رُجُوعَ"⁽⁴⁾. "وَالْمَرْدُودَةُ مِنَ النِّسَاءِ: الْمُطَلَّاقَةُ"⁽⁵⁾.

(3) ﴿أَرْدَلِ الْعُمَرُ﴾: الرُّدْلُ وَالرُّذَالُ: الدَّوْنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ⁽⁶⁾، وَالْمَرْغُوبُ عَنْهُ لِرَدَائِهِ⁽⁷⁾، وَالرُّذَالُ وَالرُّذَالَةُ: مَا انْتَقَى جِدَّهُ وَبَقِيَ رَدِيئُهُ، وَالْأَرْدَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: الرَّدِيءُ مِنْهُ⁽⁸⁾، وَجَمْعُهُ: الْأَرْدَلُونَ وَالْأَرَادِلُ⁽⁹⁾، وَأَرْدَلِ الْعُمَرُ: أَرْدَوْهُ وَأَسَوَاهُ⁽¹⁰⁾، وَهُوَ الَّذِي تَذَهَبُ فِيهِ الصَّحَّةُ وَالْقُوَّةُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الثَّقَلُ وَضَعْفُ الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ⁽¹¹⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَوْجَدَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ دُونَ أَنْ تَكُونُوا شَيْئاً، ثُمَّ يَقْبِضُكُمْ سَبْحَانَهُ بِأَجَالٍ مُخْتَلِفَةٍ صَبِيحَاناً أَوْ شُبَّاناً أَوْ كُهُولاً، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْقَى مُحْتَفِظاً بِقُوَّةِ جَسَدِهِ وَعَقْلِهِ حَتَّى يَمُوتَ، وَمِنْكُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَى أَرْدَا الْعُمَرِ وَأَخْسَهُ وَهُوَ الْهَرَمُ وَالشَّيْخُوخَةُ؛ لِئَلَّا يَعْقِلَ بَعْدَ عَقْلِهِ الْأَوَّلِ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ خَلْقِهِ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ⁽¹²⁾.

الله مَن خلقنا
وقدَّر آجالنا
لعلمه سبحانه
بأحوالنا

- (1) الأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (ردد).
- (2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، اللقائيس: (ردد).
- (3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (ردد).
- (4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، اللقائيس، وابن منظور، اللسان: (ردد).
- (5) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، اللقائيس: (ردد).
- (6) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، اللقائيس: (رذل).
- (7) الراغب، المفردات: (رذل).
- (8) ابن منظور، اللسان: (رذل).
- (9) الراغب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ: (رذل).
- (10) ابن جرير، جامع البيان: 251/17، والبغوي، معالم التنزيل: 30/5، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 140/10.
- (11) ابن منظور، اللسان، وجبل، للعجم الاشتقاقي المؤصل: (رذل).
- (12) ابن جرير، جامع البيان: 291/14، والبغوي، معالم التنزيل: 30/5، وأنوار التنزيل: 233/3.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلغة فصل الآية عما سبقها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ استثنائية، ولفظ الجلالة: مبتدأ مرفوع على التعظيم، والجملة بعده خبر المبتدأ، وهو وخبره استئناف⁽¹⁾.

وقد حسن الفصل دون الوصل هاهنا انتقال سياق الآيات من الاستدلال بدقائق صنع الله تعالى على وحدانيته إلى الاستدلال بتصرفه في الخلق على جهة القهر والعلو⁽²⁾.

نكتة العدول عن الآيتين السابقتين:

ابتدئ قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ باسم الجلالة لأجل أن العلم أظهر وأوضح في الدلالة على تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم، كما هو مقتضى الظاهر، فناسب هذا دلالة الآية على انفراد الله بالخلق والإنعام، فكان الأليق استعمال العلم الظاهر دون الإضمار؛ لأن مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدل - بفتح الدال - على إثبات صفاته تصريحًا واضحًا⁽³⁾، ثم إنه لما كان سياق الآية الانتقال إلى نوع آخر من الأدلة الدالة على وحدانية الله وهو الاستدلال بتصرف الله تعالى في خلقه على نحو القهر والاستعلاء بما لا يد لهم في تغيير شيء منه، ناسب ذلك أن يُبتدأ فيه بلفظ الجلال، بحيث يكون لكل نوع من الأدلة استئناف بالاسم الجليل.

غرض تقديم المسند إليه:

جيء بالمسند الفعلي لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند

(1) محمود صافي، الجدول: 7/ 352، وبهجت صالح، الإعراب للفصل: 6/ 176، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 166.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

الأدلة الدالة
على وحدانية
الله ﷻ متنوعة

الابتداء باسم
الجلالة أظهر
وأوضح في
الدلالة على
تحقيق الانفراد
بالربوبية

لا خالق إلا الله،
ولا مُدبّر للأمر
سواه

الفعليّ في الإثبات، نحو: أنا سعيْتُ في حاجتك، فيفيد أنَّ الله - وحده - لا غيره هو الذي يخلق النَّاسَ، ثُمَّ يَتَوَفَّاهُمْ أو يَرُدُّهُمْ إلى أرذل العُمُر⁽¹⁾، وفي هذا دلالةٌ ظاهرةٌ على انفرادِهِ ﷻ بالرُّبُوبِيَّةِ، التي مِنْ خصائصها الخَلْقُ والتَّدْيِيرُ.

سرُّ إظهار اسم الجلالة ﴿وَاللَّهُ﴾:

إظهار اسم
الجلالة تنبيه
للمشركين
على انفراد الله
بالرُّبُوبِيَّةِ، وعلى
وحدانيَّته

جاء المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ الآية اسمًا ظاهرًا؛ لإفادة التَّعْظِيمِ، وتربية المهابة، فالمقام مقام بيان دلائل انفرادِهِ ﷻ، فهو وحده القادر على الخَلْقِ والإماتة والرَّدُّ إلى أرذل العُمُر.

دلالة (ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّلَكُمْ﴾:

ليس الموت
معاقبًا للخَلْقِ،
بل متراخيًا عنه

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّلَكُمْ﴾ للتَّفَاوُتِ والتَّراخي بين الخَلْقِ والإماتة، فليس الموتُ معاقبًا للخَلْقِ، بل متراخيًا عنه، والتَّراخي في كلِّ شيءٍ بحسبه⁽²⁾.

سرُّ العدول في قوله: ﴿يَتَوَفَّلَكُمْ﴾:

كلُّ شيءٍ في
علمه مقدور،
ومن حكمته
مراعاة المُخاطَبِ
فيما هو مسطور

جاء الفعل ﴿خَلَقَكُمْ﴾ ماضيًا؛ لأنَّه خطابٌ إلى موجودٍ مخلوقٍ بالفعل، أمَّا التَّوَفَّى، فهو أمرٌ لم يكن بعد بالنَّسبة للمُخاطَبِينَ؛ فلا يُناسب أن يُخاطَبَ مَنْ توفَّاهُ الله؛ لأنَّ الخطابَ يكون لموجود، فلمَّا كان ذلك كذلك عُدِلَ عن الفعل الماضي إلى التَّعبير بالفعل المضارع الدَّالُّ على أنَّه أمرٌ يكون ولم يقع بعد⁽³⁾، وعُدِلَ عن الاسم الظَّاهر إلى الضَّمير للعلم به؛ لأنَّه قد تقدَّم التَّصريح به في أوَّل الآية، وللإشارة إلى أنَّ الذي يخلق والذي يتوفَّى واحد، ففيه التَّنْبِيه على انفرادِ الله بالخَلْقِ والإماتة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211 / 14.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4217 / 8.

(3) الشَّهاب، حاشية على البيضاوي: 349 / 5.

نكتة العطف في ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ﴾:

استعمل العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ﴾؛ لتقدير معطوفٍ عليه، دلَّت عليه الجملة ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّلَكُمْ﴾؛ أي: فمنكم من تُعَجَّلُ وفاته ومنكم من يُرَدُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ⁽¹⁾، وفي ذلك بيانٌ وحصرٌ لأقسام النَّاسِ وأحوالهم في الخَلْقِ والوفاة إمَّا بتعجيلها أو تأجيلها.

الوفاة تكون
معجلةً أو
مؤجلةً

دلالة حرف الجرِّ في ﴿وَمِنْكُمْ﴾:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ﴾ للتَّبَعِيضِ، حيث قَسَّمت الآية الخَلْقَ قَسْمَيْنِ، فمنهم مَنْ يموت في إِبَّانِ الوفاة قبل رَدِّه إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ، وهي السُّنُّ المعتادة الغالبة؛ لأنَّ الوصول إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ أمرٌ نادرٌ، ومنهم مَنْ يَحْيى حَتَّى يصير إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ⁽²⁾.

ومن دلائل قُدرة
ذي الكمال
والجلال للفاوطة
في الأعمار
والآجال

غرض تقديم شبه الجملة ﴿وَمِنْكُمْ﴾:

قُدِّمَ شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ﴾ كون الرَّدِّ إلى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لا ينحصر إلى مدَّةٍ معيَّنة، وإنَّما هو بِحَسَبِ إِنْسانٍ إِنْسانٍ، والمعنى: ومنكم من يُرَدُّ إلى أَرْدَلِ عُمَرِهِ، وَرُبَّ مَنْ يكون ابنُ خمسِينَ سنةً وهو في أَرْدَلِ عُمَرِهِ، وَرُبَّ ابنِ مئةٍ أو تسعين ليس في أَرْدَلِ عُمَرِهِ⁽³⁾.

الرَّدُّ إلى أَرْدَلِ
الْعُمَرِ غير
مُنْحصِرٍ بِمدَّةٍ

نكتة إيراد اسم الموصول في ﴿مَنْ يُرَدُّ﴾:

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ﴾ هي الموصولة التي في معنى (الَّذِي) غير أنَّها أعمُّ منه من حيث صدقها في التعبير عن الذَّكَرِ والأنثى دون تخصيصٍ للذَّكَورِ، وفي عمومها لطيفة.

مَنْ رَدَّ إلى أَرْدَلِ
عمره نُسيبٍ بين
أهله

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/ 425.

(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير 14/ 211.

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز: 3/ 407.

دلالة التعبير بجملة الصلة:

قضية الموت
مؤكدة لا ريب
فيها

صلة الموصول هي قوله تعالى: ﴿يُرَدُّ﴾، وجيء بها للتخصيص على ما تضمنته من معاني التأكيد على قضية الموت، وقضية التغير والحدوث، وأن ذلك مركز في البشر، أما الله سبحانه فهو المنزه عن ذلك كله.

دلالة التعبير بالمبني للمفعول ﴿يُرَدُّ﴾:

ضعف القوة
والعقل ردي
إلى السوء،
والضعف يزيد
بالإصعاد في
مدارجه

جاء التعبير بالفعل المضارع؛ لأن هذا الرد لا يحصل مرة واحدة ولا دفعة واحدة، بل يحصل بتدرج وتجدد، فناسب هذا المعنى أن يكون الفعل فيه مضارعاً، وأما عن بناءه لما لم يُسم فاعله فإنه قد أسند الخلق والتوفية إلى الله، ولم يسند إليه فعل الرد إلى أرذله مع أن الكل من فعله ﷺ، فذلك لأجل التأدب معه وتكرمة لذاته سبحانه في عدم التبعض على نسبه إليه، وإن كنا نعتقد ذلك⁽¹⁾.

بلادة المجاز العقلي في قوله ﴿أَرَذَلَ الْعُمُرُ﴾:

مدة العمر لا
توصف برذالة
ولا شرف، وإنما
حال الإنسان
فيها التي توصف

في إضافة أرذل إلى العمر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمُرِ﴾ مجاز عقلي؛ لأن الموصوف بالأرذل حقيقة هو حال الإنسان في عمره لا العمر نفسه، فأرذل العمر هو حال هزم البدن وضعف العقل، وهو حال الإنسان في مدة العمر، وأما نفس مدة العمر، فهي لا توصف برذالة ولا شرف⁽²⁾؛ وذلك لأن الإنسان قيمته بحسب عمره، ففيه التنبيه على قيمة العمر، وتأثير فترة أرذل العمر على الإنسان.

سر تقديم ﴿يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ على ﴿أَرَذَلَ الْعُمُرِ﴾:

الوصول إلى
أرذل العمر نادر

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّنَكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمُرِ﴾ قدم ذكر المتوفى على الرد إلى أرذل العمر مع تأخره

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 33/3.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/14.

عنه في الوجود؛ لأنَّ الوصول إلى أرذل العُمُر نادرٌ، وغالب النَّاس يموتون قبل ذلك، فقدَّم الغالب على النَّادر⁽¹⁾.
بلاغة الاستعارة في ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾:

لام التَّعلِيل مستعملةٌ في معنى الصَّيرورة والعاقبة تشبيهاً للصَّيرورة بالعلَّة استعارةً تشير إلى أنَّه لا غاية ولا فائدة للمَرء في طول العُمُر تعريضاً بحال أكثر النَّاس؛ إذ يرغبون في طول الحياة، فكأنَّ طول الحياة الذي عاقبته الغالبة إلى نسيان العِلْم، وعدمه بعد كونه كالعلَّة في ذلك الذي هو نسيان العِلْم وعدم قبوله التَّعلُّم بعدما كان عالماً؛ وتبنيهاً على وجوب الإقصار من تلك الرَّغبة لما كانت تلك العاقبة المعلومة كالعلَّة فيها، واستعارة حرف العلَّة إلى معنى العاقبة مستعملةٌ في الكلام البليغ في مقام التَّوبيخ أو التَّخطئة أو نحو ذلك⁽²⁾.

دلالة (كي) في قوله: ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمَ﴾:

(كي) حرف مصدريٌّ، وهو مُستعملٌ في معنى الصَّيرورة، والعاقبة لدخول لام العاقبة عليه، فالمعنى حينئذٍ: منكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر ليصير غير قابلٍ لِعِلْمٍ ما لم يعلمه لأنَّه يُبْطِئُ قبولَه للعِلْم، ولا يُفهم من ذلك عدم عِلْمه بشيءٍ أبداً، وإنَّما أراد الأغلب؛ فإنَّه إذا رُدَّ إلى أرذل العُمُر لا يذهب جميعُ عِلْمه، وإنَّما يذهب أكثره فقط، وربَّما لم يتصوَّر ما يتلقَّاه ثمَّ يُسرِع إليه النُّسيان، والإنسان يكره حالة انحطاط عِلْمه؛ لأنَّه يصير شبيهاً بالعجماءات⁽³⁾.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمَ﴾:

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ هي النَّافية⁽⁴⁾،

نسيان العِلْم
وعدم تقبُّل
التَّعلُّم يوجِب
الإقصار من
الرَّغبة في طول
الحياة

كي حرفٌ
مصدريٌّ جاء في
معنى الصَّيرورة

يضعف العِلْم
بضعف آلة
تلقَّيه

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 212.

(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 211.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 335.

وقد أفادت نفي قبول العِلْم لضعف آلات تلقّيه عند بُلُوغ الكِبَر، والرَّد إلى أرذل العُمُر.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾:

لَمَّا كان عَدَمُ العِلْم طارئاً على الإنسان بعدما كان عالماً، جاء الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ مضارعاً منفياً لِيُدَلَّ على أَنَّ حالة عَدَمِ العِلْم هذه طارئةٌ حادثةٌ تتجدَّد للإنسان من بعد عِلْمٍ سابقٍ، وهذا ممَّا تساعد عليه صيغة المضارع دون غيره.

سرُّ إضمار فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾:

أُضْمِرَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمُ﴾ لإفادة العموم بغير تعيين، فتكون هذه الصَّيرورة إلى هذه الحال من عَدَمِ العِلْم بشيءٍ بعدما كان عالماً حالاً قد تصيب أيَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إلَّا ما شاء الله بعِلْمه وقُدْرته أن يعجِّل له أجله.

غرض تنكير ﴿عِلْمٍ﴾ و﴿شَيْئاً﴾:

وتنكير ﴿عِلْمٍ﴾ للدَّلالة على الجنس، والمعنى: لِكَيْلا يَعْلَمَ شيئاً بعد أن كان له جنسُ عِلْمٍ؛ فيزول منه قبول العِلْم⁽¹⁾ وتنكير ﴿شَيْئاً﴾: لإفادة التَّكثير، أي: لِكَيْلا يَعْلَمَ بعد عِلْمٍ شيئاً كثيراً مِنَ العِلْم.

سرُّ تقييد الفعل في ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾:

جاء التَّقييد بشبه الجملة ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ للإمعان في بيان حال الرَّدالة وخِسَّتْها، وفيه تنبيهٌ على قُدرة الله ﷻ على إحياء الإنسان بعد إماتته، كما قَدَّر على نقله مِنَ العِلْم إلى الجهل بعدما كان عالماً⁽²⁾، ويُضاف إلى ذلك أَنَّهُ كنايةٌ عن النِّسيان، والنَّاسي يَعْلَمُ الشَّيْءَ ثُمَّ ينساه، فيكون جاهلاً بعد عِلْمٍ، وليس كمن لم يَعْلَمَ شيئاً من أَوَّل الأمر⁽³⁾.

حالة عدم
العلم طارئة
تتجدد للإنسان
من بعد علم
سابق

حالة عدم
العِلْم قد تصيب
أيَّ أَحَدٍ مِنَ
النَّاسِ

في أرذل العُمُر
يُنْقَصُ العِلْمُ ولا
يذهب جميعه

في الرَّد إلى
الجهل بعد
العِلْم دلالة على
قُدْرته تعالى
على الإحياء بعد
الإماتة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/ 14.

(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 88/ 3.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 159/ 9.

بلادة التشابه اللفظي مع ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾:

في بعض الآيات
إجمالاً لما فُصِّل
في آيات

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّلُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، وقال في سورة الحج: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5]، للسائل أن يسأل فيقول: لم اختصت الآية التي في سورة الحج بـ ﴿مِنْ﴾ [الحج: 5] وخلت منها الآية في سورة النحل؟ والجواب أن يقال: ذكر في سورة النحل الجملة التي فصلت في سورة الحج، وكانت لفظة ﴿بَعْدَ﴾ لجملة الزمان المتأخر عن الشيء، قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ فأجمال ما فصله في السورة الأخرى، وبعده: ﴿ثُمَّ يَتَوَقَّلُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ أي: يعزب عنه في حال الهرم ما كان يعلمه قبل من الحكم ويستدركه من الآراء المصيبة، ويرتكبه من المذاهب القويمة، فكان هذا موضع إجمال لا تفصيل معها، ولا تحديد، ولم يكن كذلك الأمر في سورة الحج؛ لأنه قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: 5]؛ يعني: أصلكم، وهو آدم ﷺ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الحج: 5] أولاده ﴿ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: 5]، فذكر تفصيل الأحوال ومبادئها فقال: من كذا وكذا لا ابتداء كل حال ينتقل منه إلى غيره، فبنى ذكر الحال التي ينتقل فيها من العلم إلى فقدته على الأحوال التي تقدم ذكرها، فكما حدّد أوائلها بـ ﴿مِنْ﴾ [الحج: 5] كذلك حدّد الحال الأخيرة المتنقلة عما قبلها بـ ﴿مِنْ﴾ [الحج: 5] فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ [الحج: 5]؛ أي: فقد العلم من بعد أن كان عالمًا، فباين الموضع الأوّل لذلك⁽¹⁾، فمجمال القول أنّه لما أتى ما قبل آية النحل مُجمالاً جاء بعده كذلك مُجمالاً، وفي الحج أتى ما قبلها مفصلاً

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 854.

من ابتدائه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: 5] إلى آخره، فجاء بعده كذلك مُفَصَّلًا من ابتدائه مناسبًا لما تقدّمه من التّفصيل⁽¹⁾.

وقد تكرّرت لفظة (مِنْ) هذه في هذه الآية في ستّة مواضع، الخمسة منها قبل قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5] والواحدة بعدها، وكلُّها محرّزةٌ معناها الذي جيء بها من أجله إلّا التي في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ [الحج: 5]، فاستدعاها سياق آية الحجّ للتّشاكل والتّناسب في النّظم، ولم يكن في آية النّحل ما يستدعيها إذ لم يرد ما يقتضيها، فورد كلٌّ على ما يجب ويناسب، ولا يمكن العكس⁽²⁾.

دلالة موقع ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

وقع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مَوْقع العِلَّةِ لما قبله من ذكر أحوال النّاس في بلوغهم آجالهم التي كتب الله لهم، وأنّهم مقهورون عليها لا يقدرّون على تغيير شيءٍ منها، فعَلَّلَ ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾؛ أي: الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ أي: بالغ العِلْمِ شامل القُدرة، فمهما أراد كان، ومهما أراد غيره ولم يردّه هو أحاط به علمه، فسبَّب له بقدرته ما يمنعه⁽³⁾، ووقع هذه الجملة الكريمة مَوْقع التّعليل من سابقتها هو ما حسن الفصل بينهما دون الوصل.

سرُّ توكيد خاتمة الآية بـ﴿إِنَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ توكيد بـ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد تأكيد مضمون الجملة الذي ينوب مناب تكريرها مرّتين⁽⁴⁾، مع وجازة اللفظ وتكثير المعنى، وقد حسن تأكيد الجملة الكريمة بمؤكّدٍ واحدٍ

لله الإحاطة
الكاملة والقُدرة
الشّاملة

ما لا يُنكر لا يُنكر
فيه المؤكّدات

(1) ابن جماعة، كشف اللعاني، ص: 230.

(2) الكرمانى، ملاك التأويل: 302/2.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 206/11.

(4) ابن يعيش، شرح الفصل: 526/4.

لأنَّ ما سبقها ليس ممَّا ينكره أحد؛ إذ لم يَنَازِعَ أحدٌ مِنَ المخاطَبين في كون الله تعالى هو الخالق، وفي كون الموت حقًّا تذوقه كلُّ نَفْسٍ، وفي كون بعض النَّاسِ يبلِغون أرذل العُمُر، فلمَّا لم يكن هذا ممَّا يُنكَرُ لم تُكثَّر فيه المؤكِّدات، غير أنَّ مَنْ نظر إلى النَّاسِ في تعاملهم مع الموت رأى أنَّهم يتعاملون معهم تعامل الشَّاكِّ فيه، المُتردِّد في أمره؛ لذلك أكَّدت الجملة بمؤكِّد واحد.

نكتة التَّذييل ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

لَمَّا ذكر ما يعرض في الهَرَم من ضَعْف القُوَّة والقُدرة وانتفاء العِلْم، ذكر علمه وقُدْرته اللّذين لا يتبدَّلان ولا يَفْنيان، ولَمَّا ذكر أيضًا ما نبَّهنا به على ذلك في إنشائنا مِنَ العَدَم وإماتتنا، وتثقلنا في حال الحياة مِنَ حالة الجهل إلى حالة العِلْم، وذلك كُلُّه دليلٌ على القُدرة التَّامة والعِلْم الشَّامِل؛ ولذلك حُسِّنَ لذلك التَّذييل بجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ للتَّنبيه على أَنَّ المقصود من الجملة الدَّلالة على عظيم قُدرة الله وعظيم عِلْمه.

عِلْمُ الله وقُدْرَتُهُ
لا يَتَبَدَّلَانِ ولا
يَفْنِيَانِ

نكتة التَّرْتِيب في قوله: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

قَدَّمَ اسم (العَلِيم) على (القَدِير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّ القُدرة تتعلَّق على وفق العِلْم، وبمقدار سعة العِلْم يكون عِظَم القُدرة⁽¹⁾.

بمقدار سعة
العِلْم يكون
عِظَم القُدرة

نكتة تنكير ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾:

التَّنكير في الاسمين الجليلين الكريمين: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ للتَّعظيم والتَّعظيم، أمَّا التَّعظيم فلأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلْمًا وقُدرةً، على نحو لا تكاد تبلغه الأفهام أو تدركه الأوهام أو يتصوَّره الأنام، وأمَّا التَّعظيم فلأنَّ القرائن الفكرية دلَّت على التَّعظيم، إذ

أحاط الله بكلِّ
شيءٍ عِلْمًا
وقُدرةً بما لا
تبلغه الأفهام أو
تدركه الأوهام أو
يتصوَّره الأنام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211 / 14.

وَرَدَتْ صِفَاتُ اللَّهِ ﷻ الَّذِي دَلَّ الْعَقْلُ، وَدَلَّتْ نصوصُ الشَّرْعِ عَلَى أَنَّ صِفَاتِهِ ﷻ عَمومٌ وَشَمولٌ تَامٌّ فِيمَا هِيَ لَهُ.

فائدة صيغ المبالغة فيهما:

علمه سبحانه
باهرٌ، وسلطانه
قاهر

جاءت أسماءُ اللَّهِ الحسنى بصيغة المبالغة لتدلَّ على شمولِ عِلْمِهِ سبحانه لكلِّ ممكنٍ سواء كان أم لم يكن بعد، وكذلك لما هو محالٌّ لا يكون أبدًا، وعلى عمومِ قُدْرَتِهِ لكلِّ ممكنٍ؛ ففيه تنبيهٌ على كمالِ قُدْرَتِهِ وتصرُّفه، وعجزهم وقهرهم تحت سلطانه؛ ليدركوا افتقارهم في كلِّ حالٍ إليه، فهم مفتقرون إلى نِعَمِهِ.

❁ الفُروقُ المُعْجِبيَّةُ:

الموت والوفاة:

الموت قبض
الروح والنفس،
والوفاة
استكمال الرِّزْق
واستيعابه

الفرق بين الموت والوفاة أنَّ الموت هو قبضُ الرُّوح والنَّفْس، والوفاة استكمالُ الرِّزْق واستيعابه؛ فالموت لا يكون إلا بعد الوفاة، فَمَنْ أكْمَلَ وأَتَمَّ اللَّهُ عُمُرَهُ ورزقَهُ حتى الهوَاء والنَّفْس (أي: وقى اللَّهُ له ذلك كله)، أَمَاتَهُ اللَّهُ، فهذا يعني أنَّ الوفاة تكون قبل الموت مباشرة، ولكنَّها ملازمة له ومُتَّصِلة به من دون أن يكون بينهم مهلةٌ زمنيَّة⁽¹⁾.

أرذل العُمُر والتَّنكِيس في الخَلْق:

أرذل العُمُر هو
الحال التي يصل
إليها الإنسان
بعد تنكِيسه
مدَّة من الزَّمان

النَّكْس: قلبُ الشَّيْءِ على رأسه، أو قلبُ الأعلى أسفل أو ما يقرب من الأسفل⁽²⁾، ومعنى قول اللَّهِ ﷻ: ﴿نُنَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: 68] نقلُّبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفُه وانتقاصُ بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، حتَّى يرجع في حالٍ شبيهةٍ بحال الصِّبَا في ضعف جسده وقلة عقله وخُلُوِّهِ من الفهم، كما يُنَكِّس السَّهْمُ فيُجْعَلُ أعلاه أسفلَه⁽³⁾.

(1) عبد الجبار فتحى زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 761.

(2) ابن فارس، القاموس، والراغب، المفردات: (نكس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 54.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 25، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 79، وأبو السعود، إرشاد العقل

السليم: 7/ 177.

وأرذل العُمَرُ: أردؤه، وآخره الذي تفسد فيه الحواسُ، وتتنقص فيه القوى، ويختلُّ النُّطق والفكر؛ فيكون حال الشخص فيه كحاله في وقت الطفوليَّة من ضعف العقل والقوَّة، وخصَّ بالردِّيلة لأنَّها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة فإنَّها حالة تتقدَّم فيها إلى القوَّة وإدراك الأشياء⁽¹⁾.

دلَّ ما سبق على أنَّ التَّنْكِيس يكون بابتداء تناقص القوى الحسيَّة والمعنويَّة؛ مثل أن يضعفَ بصر الإنسان، ثمَّ يضعف سمعه، ثمَّ تضعف ذاكرته؛ فيزداد الضَّعف شيئاً فشيئاً، وينزل الإنسان في المدارج التي أصعده الله فيها إلى أن تضمحلَّ قواه الحسيَّة؛ فيكون كالطفل فلا يقدِّر على شيءٍ، والمعنويَّة؛ فلا يعلم شيئاً⁽²⁾؛ فمتى وصل إلى هذه الحال فقد رُدَّ إلى أرذل العُمَرُ، وهو لا يكون في بداية التَّنْكِيس بل هو في الحال التي يصل إليها الإنسان بعد تنكيسه مدَّة من الزَّمان.

(1) ابن عطية، الحرر الوجيز: 3/ 407، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 562.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 161.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 4-23-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 4-23-768-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»